المآخذ الشعرية

(٢) الاقتباسات القرآنية

اكثر الشعراء اقتباساتهم من الكتب الدينية والاحاديث المشهورة [١] فما اقتبسوه من القرآن الشريف قول بعضهم مضمناً الآية « وهزّي ... »

ألم تر ان الله اوحى لمريم اليك فهزّي الجذع من ساقط الرُطَب
ولو شاء احنى الجذع من غير هزّةٍ اليها ولكن كل رزق لهُ سبب

وقول الآخر مضمناً آية « يوم تأتي السماء بدخان ... » وفيه الاكتفاء البديعي والتاريخ :

سألوني عن الدخان وقالوا هل لهُ في كتابنا إيعاد
قلت ما فرّط الكتاب بشيء ثم أرخت « يوم تأتي السماء »

٩٩٩ هـ (١٥٩٠ م)

وقال القاضي محيي الدين بن قرناص مقتبساً قولهُ في سورة النازعات : « فاذا هم بالساهرة » :

ان الذين ترحّلوا نزلوا بعين ناظره
اسكنتهم سيف مقلتي فاذا همُ بالساهره

اراد : فاذا هم احياء على وجه الارض بعد ما كانوا اموتاً في بطونها

وقال الصلاح الصفدي مقتبساً ايضاً ومورّياً :

يا عاشقين حاذروا مبسماً عن ثغره
فطرفهُ الساحر ان شككتمُ في امره
« يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره »

وقال الآخر :

اعكف على الكتب وادرس تؤتَ مختار النبوّه
فالله قال ليحيى « خذ الكتاب بقوّه »

وقال الخفاجي المصري :

اقول لذات حسن قد توارت مخافة كاشح سعى الحي كامن
أرِني وجهك الوضاح قالت « ألم تؤمن فقلت بلى ولكن ... »

---

(١) وقد يكون الاقتباس في النثر كقول الحريري : فلم يكن الا كنجح الهجير او اترب حتى انشد فاغرب

وقال ابن ليون التجيبي :

اذا جزاك بسوء من اسأت له فذاك عدل وما في العدل من زلل
جزاه سيئة بالنص سيئة لاحيف في ذاك في قول وفي عمل

وقال الحامي :

أهدى اليكم على بعد تحيته حيوا باحسن منها او فردوها

وقال الآخر :

وعند النوم قلت لمقلتيه وحكم النوم في العينين جار
تبارك من توفاكم بليل ويعلم ما جرحتم بالنهار

وقال ابن سناء الملك :

رحلوا فلست مسائلاً عن دارهم انا باخع نفسي على آثارهم

وقال آخر :

يأتون المذاكر في نشاط ويأتون الصلاة وهم كسالى

وقال آخر :

انشدني بالذي استرقت خطًا واشهد معشراً قد شاهدوه
فانه الله خلاق البرايا عنت لجلال هيبته الوجوه
يقول « اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه »

وقال الآخر :

ان كانت العشاق من اشواقهم جعلوا النسيم الى الحبيب رسولا
فانا الذي اتلو لهم « يا ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا »

وقال شيخ شيوخ حماه :

يا نظرة ما جلت لي حسن طلعته حتى انقضت واداعتني على وجل
عاتبت انسان عيني في تسرعه فقال لي « خلق الانسان من عجل »

وقال آخر :

ان كنت ازمعت على هجرنا من غير ما جرم فصبر جميل
او كنت بدلت بنا غيرنا « فحسبنا الله ونعم الوكيل »

وقال جلال الدين السيوطي :

قد بلينا في عصرنا بقضاة يظلمون الانام قلّ عمّ

يأكلون التراث اكلاً لمًّا ... «ويحبون المال حباً جمًّا»

وقال الشيخ حسين المغربي :

كم من جهول في الغنى سارح ... ومن عليم في عناء مقيم
قد حارت الالباب في سرّ ذا ... وطاشت الناس فقال الحكيم
لا يُسأل الخلاّق عن فعله ... «ذلك تقدير العزيز العليم»

وقال ايضاً :

يا راضياً بعلومه بين الورى ... إياك فيها ان يشينك قادحُ
لتكون مرضياً لها عند الندى ... «يا ايها الانسان انك كادحُ»

وقال ايضاً :

يا من يروم الى الحقائق مسلكاً ... ان شئت فيها ان تصير بصيرا
فعليك بالهادي النصير كفاية ... «وكفى بربك هادياً ونصيرا»

وقال ايضاً :

الهي تناجيك السماء واهلها ... وترجوك اهل الارض حقاً وتقصدُ
تباركت يا رحمن انت رحيمنا ... و«مالك يوم الدين اياك نعبد»

وقال آخر :

يثني المرء في الصيف الشتا ... فاذا جاء الشتا انكرهُ
ليس يرضى المرء حالٌ واحد ... «قتل الانسان ما اكفرهُ»

وقال الآخر :

ان دمعت عيني فمن اجلها ... بكى على حالي من لا بكى
اوقعني إنسانها في الهوى ... «يا ايها الانسان ما غرّكا»

وقال العبّار :

ابن الجمالي مات حقاً ... برّح بي موتهُ وآذى
ورحت اقرا عليهِ جهراً ... «يا ليتني مت قبل هذا»

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة :

واعيدَ جارت في القلوب لحاظهُ ... واسهرت الاجفانَ اجفانهُ الوسنى
اجل نظراً في حاجبيهِ وطرفهِ ... ترى السحر منهُ «قاب قوسين او ادنى»

وقال شهاب الدين بن حجر العسقلاني :

خاض العواذل في حديث مدامتي لما رأوا كالبحر سرعة سيره
فجبنه لاصون سرّ هواكمُ «حتى يخوضوا في حديث غيره»

وقال الآخر

اذا رأيت ذوي ظلم فقل لهمُ ستندمون وحاذر ان تـأكنهم
كم مثلهم في الورى كانوا جبابرةً «فاصبحوا لا ترى الأ مساكنهم»

وقال ابن ظاهر التيمي البغدادي :

يامن عدا ثم اعتدى ثم اقترف ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترف
أيسر يقول الله في آياته «ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف»

وجمع الشيخ اسماعيل النابلسي والد الشيخ عبد الغني النابلسي رسالة في المنتبسات منها :

خذ من الخير اذا لاح الذي منهُ تشاه
ثم لا تنظر الى ما سيقول السفهاه

ومنها ايها السائل قوماً ما لم سيف الخير مذهب
اترك الناس جميعاً وإلى ربك فارغب

ومنها لا تكن ظالمًا ولا ترضَ بالظلم وانكر بكل ما يستطاعُ
يوم يأتي الحساب ما لظلوم من حميم ولا شفيع يطاعُ

ومنها اعوان اهل الظلم قد زلزلوا بيأسهم قلب الكئيب الكليم
يا ايها الناس اتقوا ربكم زلزلة الساعة شيءٌ عظيم

ومنها ايها المعطون عما كرهوا اذ ما يارون
لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

وقال الشيخ برهان الدين الباعوني :

قالوا الخيا شرابٌ للانس والبسط جاءت
فقلت ردًّا عليهم بئس الشراب وساءت

وقال المعمار :

ما مصرُ الاَّ منزلٌ مستحسنٌ فاستوطنوهُ مشرقًا ومغربا
هذا وان كنتم على سفر به فتيمموا منهُ صعيداً طيبا

وقال آخر:

قالت لنا سود عيون الظبي ... وهي تسل البيض في المعركه
يا عصبة العشق تحوّلوا « ولا ... تلقوا بايديكم الى التهلكه »

وقال ابن نباتة في الفاضل نجم الدين:

اذا الملاه اتخذوا غاية ... لهم بنائك يسترشدون
فاحسن بهم في دياجي السطور ... قياماً « وبالنجم هم يهتدون »

وقال لسان الدين بن الخطيب:

قال جوادي عندما همزت همزاً اعجزه
الى متى تهمزني « ويلٌ لكلّ همزه »

وقال آخر:

حماما من ضيقها تشكي ... كانها صدرٌ وقد احرجوه
فهي لفلي نزاعةٌ للشوى ... وهماؤها كالمهل يشوي الوجوه »

وقال ابن عبد الملك الخنجي:

جهنم حمامكم نارها ... تقطع اكبادنا بالظما
وفيها عصاة لها ضجة ... « وان يستغيثوا يغاثوا بما »

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر موريا:

بابي فتاة من كمال صفاتها ... وجمال بهجتها تحار الاعينُ
كم قد وقفت عواذلي عن وجهها ... لما تبدت « بالتي هي احسنُ »

واخذه الشيخ جمال الدين بقافيته وزاده ايضاحاً بقوله:

يا حازياً شمس النهار جميلة ... وجمالها فاقت الغوازينُ
فانظر الى حسنيهما متأملاً ... وادفع ملامك « بالتي هي احسنُ »

ومما جاء في القصائد قول بعضهم:

لستُ انسى الاحباب ما دمت حياً ... مذ نأوا النوى مكاناً قصياً
وتلوا آية الوداع فخرّوا ... خيفة البين سجداً وبكيّا
فلذكراهم تسحّ دموعي ... كلما اشتقتُ بكرة وعشيّا
وأناجي الاله من قرط وجدي ... كمناجاة عبده زكريّا
وهن العظم بالبعاد فهب لي ... ربّ باللطف من لدنك وليّا

واستجب لي الهوى دعائيَ اني ... لم اكن بالدعاء ربه شقيًا
قد نرى قلبي الفراق وحقًا ... كان يوم الفراق شيئًا فريًا
واخفق نورهم فناديت ربي ... في ظلام الدجى نداء خفيًا
لم يكُ البعدُ باختياري ولكن ... كان امرًا مقدَّرًا مقضيًا
يا خليليَّ خليّاني ووجدي ... انا اولى بنار وجدي صليًا
ان لي في الغرام دمعًا مطيعًا ... وفؤادًا صبًّا وصبرًا عصيًا
انا من عاذلي وصبري وقلبي ... حائرٌ ايهم اشدُّ عنيًا
انا شيخ الغرام من يتَّبعني ... أهدِ في الورى صراطًا سويًا
انا ميت الهوى ويوم اراهم ... ذلك اليوم يوم أُبعثُ حيًا

وقال ابو جعفر الالبيري البصير :

اذا ظلم المرء فاصبر لهُ ... فبالقرب يقطع منهُ الوتينُ
فقد قال ربك وهو القوي ... وأملي لهم ان كيدي متينُ

وقال ابن الحاج الغرناطي :

وعارضٌ في خدّهِ نباتهُ ... يحسنهِ بين الورى يسحرنا
اجرى دموعي اذ جرى شوقًا لهُ ... نقلتُ هذا عارض ممطرنا

وقال عزمي زاده قاضي العسكر :

يا نفسِ عوذي بالكريم وعرّجي ... فهو الذي يسدي الينا نعمتهُ
وينزّل الغيث الذي يروي الربى ... من بعد ما قنطوا وينشر رحمتهُ

وقال الشيخ احمد البربير من شعراء القرن الثامن عشر :

بدا فاخفى الليل من فرعهِ ... وكانَ الصباح سنا مُفرقهِ
بوجه تفاطر منهُ الحياء ... ونحرٍ يكاد سنا برقهِ

وقال بطرس كرامه من شعراء القرن الماضي يمدح موسى بن الفضل السيد شريف من قصيدة :

يا ابن الشريف الذي جاءت فضائلهُ ... كالبدر تشرق بين البدو والحضرِ
خمَّستَ بالفضل ذات الخال مكرمةً ... مطوّقًا جيدها عقدًا من الدررِ
من البديع ومن سحر البيان لقد ... « أُوتيتَ سؤلك يا موسى على قدرِ »

وقال شاعرٌ مصري من المعاصرين :

يا درّةً ثغرِ حبيبي كن بالعقيق رحيما
ولا تعضّ عليهِ «ألم يجدك يتيما»

وقد يحوّل الاقتباس الى المجاز كقول ابن الرومي :

لئن اخطأتُ في مدحيك ما اخطأتَ في منعي
لقد ازلتَ حاجاتي «بوادٍ غير ذي زرعِ»

اي عند من لا خير عندهُ ونحو ذلك

وقد يتغير الكلام لضرورة الوزن كقول الآخر

كان الذي خفت ان يكونا انّا الى الله راجعونا

او للمغالطة والمواربة كقول الآخر :

دع المعابد للعبّاد تسكنها واقصد بنا حانة الخمار يسقينا
ما قال ربّك ويل للألى سكروا بل قال ربّك «ويل للمصلينا»

ومن الاقتباسات المردودة قول ابن النبيه في مدح الفاضل :

قمتُ ليل الصدود الاّ قليلا ثم رتّلتُ ذكركم ترتيلا
ووصلت النهار اقبح وصلٍ وهجرت الرقاد هجراً جميلا
سمعي كلٌّ عن سماع عذولي سين التي عليهِ قولاً ثقيلا
وفؤادي قد كان بين ضلوعي اخذتهُ الاحباب اخذاً وبيلا
قل لراقي الجفون انّ لعيني في بحار الدموع سبحاً طويلا
ماس عجباً كائنهُ ما رأى غصناً طليحاً ولا كثيباً مهيلا
وحمى عن محبهِ كأس ثغرٍ كان منهُ مزاجها زنجبيلا
بان عني فصحت في اثر العيس ارحموني وهلّموا قليلا
انا عبد للفاضل بن عليٍّ قد تبتلت بالثنا تبتيلا
لا تسمهُ وعداً بغير نوالٍ انهُ كان وعدهُ مفعولا
جلّ عن سائر الخلائق فضلاً فاخترعنا في مدحهِ التنزيلا

وقد يتداول الاقتباس الواحد كثير من الشعراء مثل قول الآخر متناولاً معنى قوله في سورة آل عمران : وتلك الايام نداولها بين الناس :

فيوم علينا ويوم لنا ويومٌ نساء ويوم نسرّ

وقول الآخر :

ومن عادة الايام ان صروفها اذا ساء منها جانبٌ سرَّ جانبُ

وقول الحريري :

يا خاطب الدنيا الدنية انها شرك الردى وقرارة الاكدار
دارٌ متى ما اضحكت في يومها ابكت غدا تبًّا لها من دار

وقول الآخر :

في الدنيا نقول بملء فيها حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركمُ مني ابتسامٌ فقولي مضحك والفعل مبكي

ومثل قول بعضهم مقتبساً قولهُ : « ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بانفسهم »

أبا مجرم ما غير الله نعمةً على عبدهِ حتى يغيّرها العبدُ

وقول الآخر :

ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا شكرٍ عليهِ فعنهُ الله ينزعهُ

واقتبس الآخر آية من سورة البقرة : « والفتنة اشدّ من القتل » . فقال :

لقتلٌ بحدّ السيف اهون موقعاً على النفس من قتلٍ بحدّ فراقِ

وقد يكون الاقتباس باسماء سور القرآن كقول ابن العدوي في مليحٍ مخلف الوعد . وبسمى التوجيه :

ووعدتَ امس بان تزور فلم تزر فغدوتُ مسلوب الفؤاد مشتتا
لي محجة في « النازعات » وعبرةٌ في « المرسلات » وفكرة في « هل اتى »

ومن ذلك قصيدة ابن جابر البصير صاحب البديعية المسماة « بديعية البيان » نشرها المقري في نفح الطيب (٤ : ٣٨٥) منها قولهُ :

في آل عمران قدماً شاع مبعثهُ رجالهم والنساء استوضحوا خبرهُ
من مدَّ للناس من نعماهُ مائدةً عمَّت فليست على الانعام مقتصرهُ
اعراف نعماهُ ما حلَّ الرجاء بها الاَّ وانفال ذاك الجود مبتدرهُ
بهِ توسَّل اذ نادى بتوبتهِ في البحر يونس والظلماء معتكرهُ

وذكر المقري هناك بعض معارضاتٍ لها . ثم اشار الى خطبة عياض المضمنة سور القرآن (نفح الطيب ٤ : ٣٩٠) ومعارضاتها ايضاً

وقد يكون المقتبس بعض آية مع تورية واكتفاء كقول الشيخ برهان الدين القيراطي:

حسنات الحمد منهُ قد اطالت حسراتي
كلما ساء فعالاً قلت ان الحسنات

وفي القرآن آيات كثيرة موزونة مثل قوله: «فلا تحسبن الله مخلف وعده» وقوله: «وكفى بربك هادياً ونصيراً» و«يلقون فيها تحية وسلاما» و«تلا عليهِ بكرةً واصيلا» و«فذلكنَّ الذي لمتنني فيهِ» و«الحمد لله الذي اذهب عنا الحزنا» الى غير ذلك مما هو مشهور

عيسى اسكندر المعلوف

ارتقاء الامم وانحطاطها

اخص للقارىء النظريات التي يعلل بها علماء اوربا ارتقاء الامم وانحطاطها

(١) السبب الاقتصادي

اصدق نظرية عندي واكثر اقناعاً لي هي نظرية المستر روبرتسون التي شرحها في كتاب «مقدمة لدرس السياسة الانكليزية». خلاصتها ان الامم ترقى او تنحط بنسبة سعة ثروة البلاد وتجمعها او ضيقها وتفرقها. فاذا كثر عدد الاغنياء في الامة ولم تحتكر الثروة فئة قليلة كان شعورها بعدالة الحكومة او ظلمها والقدرة على مقاومة الاستبداد اشد واكثر مما لو كان عدد الاغنياء قليلاً يمكن لتلك الجذبهم الى جانبهِ ضد الامة والاستبداد بهم لسهولة تأليف جيش قوي من فقراء الامة يخضعهم دائماً

والتاريخ يثبت صحة هذه النظرية. فتقدم انكلترا الدستوري كان مصحوباً دائماً بازدياد عدد الاغنياء الصغار مثل الصناع والتجار وغيرهم ممن يخافون على ما يملكونهُ وبالتالي يهتمون بمراقبة الحكومة ومنعها من الاعتساف في الضرائب. وبديهي ان وجود طبقة في الامة كثيرة العدد من المتوسطين في الغنى مما يقوي نشر العلوم والآداب والفنون اكثر مما لو كانت هذه الطبقة كثيرة الغنى قليلة العدد. اذ في الحالة الاولى تنتشر المدارس فتكثر الكتب ويترقى الناس فترقى الفنون. اما في الحالة الثانية — قلة في العدد وكثرة في الغنى — فتؤول الحال الى جعل اكثرية الامة عبيداً اقتصاديين والاقلية الغنية تحط بانحطاط الاكثرية كما في الحال الآن في المغرب الاقصى